مشروع النظرية السوسيولوجية (الوضعية):
حدود العالمية وافاق المحلية

أحمد عماد الدين خواني. جامعة سطيف2
الزهراء زرقين. جامعة باتنة 1

مقدمة:

إن نقد النظرية السوسيولوجية، وإعادة تركيبها، يقتضيان مقاربة واستطلاع نماذج ثقافية أخرى، من أجل فهم أوجه الاختلاف بين النظرية الاجتماعية التي تستند إلى الثقافة الأخرى، والنظرية الاجتماعية السائدة، ولذلك نحتاج إلى تحديد المقولات والافتراضات والممارسات الأساسية للنظرية الاجتماعية المعاصرة، كما هي في الأوساط العلمية المتقدمة، ثم النظر في كيفية ممارستها في المستويات المختلفة من البحث، وفي تأثيرها في مختلف النشاطات العلمية والفكرية المعنية بدراسة الإنسان والظاهرة الاجتماعية. إن هذا الكلام يبدو غير منطقي بدعوى عالمية المعرفية العلمية، وقدرة منهجيتها على تجاوز الحدود والثقافات والفلسفات، لكن المقاربة النقدية المتعمقة تعطي المشروعية العقلية لتفكيك الاستفهام المعرفي، باعتبار النظرية العلمية (السوسيولوجية) بؤرة المعرفة العلمية ومنتهاها، وذلك من خلال تفكيك عناصرها الداخلية، ومحاولة استنطاق تمظهرات مستوياتها، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا من خلال عمل نقدي معرفي يسمح لنا بمراقبة الظاهرة التنظيرية السوسيولوجية عبر تاريخها المتشعب والمتأزم، ورصد الأسباب الخفية التي يحجبها رداء الممارسة السوسيولوجية، حيث سنحاول الإجابة على التساؤل التالي: هل النظرية السوسيولوجية عالمية، تصلح لجميع المجتمعات، أم أنها محلية، محدودة بظروف البناء والإنتاج المعرفية؟

1.مشروع العالمية للنظرية السوسيولوجية الوضعية:

إن علم الاجتماع الغربي " لم ينشأ من العدم تخصصاً أكاديمياً خاصاً، بل ظهر كحركةً عامة في الفكر الفلسفي الغربي للقرن التاسع عشر؛ ففي الربع الأول منه أسس بعض المثقفين الألمان (الذين ثاروا على وضعهم ورفضوا البديل الفرنسي التنويري الخاص بالنظام الاجتماعي الجديد) حركة اجتماعية جديدة أسموها: الرومانسية (Romanticisme) وتجدر الإشارة هنا لإلى أن الرومانسية لم تكن مجرد نظرية فلسفية وجمالية، بل كانت حركة اجتماعية أيضا " (فضيل دليو، 2004: 41)، لقد عبر فيلسوف النهضة " سان سيمون" (S.Simon) بشكل واضح عن طموحه في تأسيس علم للمجتمع يفهم ويراقب التحولات البنيوية والعميقة للمجتمع الأوروبي المتشكل حديثا، حيث يستمد منهجية عمله من العلوم الطبيعية بهدف الوصول إلى قوانين ونظريات تعمل على "إعادة تنظيم المجتمعات الأوروبية وإعطائها منظومة تعتمد على العلم والتصنيع" (E. Durkheim, 1981: 115)، وترجم هذا الطموح في ظهور علم مراقبة المجتمع وفق تقاليد العلوم الطبيعية مع المؤسس "أوغست كونت" تلميذ "سان سيمون"، الذي لم يُخفي تأثره الكبير بفيزياء "نيوتن" حين نعت العلم الجديد "بالفيزياء الاجتماعية".

إن الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والإيديولوجية لأوروبا النهضة، أنتجت النظرية السوسيولوجية كإجابة عن الإشكاليات التي يفرزها الواقع الأوروبية الجديد، بموضوعات ومشكلات اجتماعي متحولة ومتغيرة جذريا، عن طريق تحليلها وفهمها ومراقبتها، فالتحليل الإبستمولوجي، يكشف عن تميز الذات المفكرة الغربية والسوسيولوجية بشكل خاص؛ إنها ذات فردانية، منعزلة، مركزية، متحرر من اللاهوت الديني، مختزلة وصراعية، أنتجت نظرية سوسيولوجية تجيب عن إشكالياتها الخارجية (ثقافية، اقتصادية واجتماعية...) وتعبر عن تكوينها الداخلي المتميز.

إن الثورات المتتالية في أوروبا التنوير والنهضة، استبدلت الإيديولوجية الدينية اللاهوتية للكنيسة بمركب إيديولوجي، جمع التوجهات الفلسفية المطروحة لحل المشكلات الحياتية والاجتماعية، فتمثلت الإيديولوجية الجديدة في الراديكالية والليبرالية والمحافظة، والتي كانت حاضرة في الخيارات السوسيولوجية، " لقد انهار التحالف الهش أو على الأقل الذي كان موجودا في العصور الوسطى بين السلطة والثروة والمكان، أي بين المكونات الثلاثة لهذا النظام المفكك من طرف الثورة، وبات مهزوزا من جراء التصنيع وصعود القوى الديمقراطية، لقد اختفى هذا التحالف بمكوناته الثلاثة فأصبحت هذه الأخيرة تبحث طوال القرن التاسع عشر عن تشكيل تحالف جديد مؤهل أكثر للبقاء" (R. Aron, :33 1960)، هذا الذي انعكس مباشرة على النظرية السوسيولوجية، فتشكلت في ثلاثة تعبيرات انطلاقا من الخلفية الإيديولوجية، وهي" 1: النظريات الوضعية التي ينطلق أصحابها من أن علم الاجتماع علم طبيعي، مثله مثل العلوم الطبيعية الأخرى[...] 2: النظريات التفسيرية: التي ينطلق أصحابها من أن علم الاجتماع علم يناقض العلوم الطبيعية ويختلف عنها[...] 3: النظريات الاجتماعية التقويمية : وهي النظريات التي تندرج لا في الفئة الأولى ولا في الفئة الثانية، والتي يرفض أصحابها مبدأ الموضوعية والوضعية، وعارضوا مبدأ التحرر من القيمة " (مراد زعيمي،1997: 101).

2.التناقضات الداخلية للنظرية السوسيولوجية وانتكاسة المشروع:

إن النتيجة التعيسة التي وصلت إليها المنظومة الفلسفية الوضعية في بداية القرن العشرين، والتي عبرت عليها بطريقة جيدة مدرسة فرانكفورت، ثم أكدتها ما بعد الحداثة، تجعل الذات المنظرة السوسيولوجية تساءل نفسها عن نفسها، عن أسباب وجودها، وعن ماهيتها..، إنها الأسئلة الصعبة والحساسة التي شكلت نسق الأزمة الوجودية والمعرفية للذات المفكرة الوضعية، " لو طلبنا في الثمانينات أو في التسعينات من علماء الاجتماع أن يصفوا عصرنا بكلمة واحدة لكان الجواب دون أدنى شك: الأزمة" (يان سبورك، 2009: 55)، إن أزمة الذات المنظرة انعكست مباشرة على النظرية السوسيولوجية، " ليسقط

علم الاجتماع هو ذاته في أزمة حسب الخطاب السائد حول هذا الموضوع، رغم اعتبار البعض –خاصة في الحالة الفرنسية- أن الذي كان وراء الأحداث التي تعرفها المجتمعات الغربية والتي أظهرت بوضوح حالة الشكوك واهتزاز في القناعات، رغم ما أثارته من آمال، هُم السوسيولوجيون (P. Bourdieu, 1984 : 20) " ، فيصف "جيوفاني بوسينو" تلك المرحلة الحرجة من تطور النظرية السوسيولوجية بقوله: " لقد تفتت كل شيء، الجماعة التي تحترف مهنة علم الاجتماع بصفتها جماعة علمية، دور عالم الاجتماع، مقاييس العلمية، كل آمالنا وكثير من رجائنا [...] لقد تحطم كل شيء من منظومة المفاهيم والنظريات التي استخدمناها من أجل إضفاء مفهوم على العالم الذي كنا نعيش فيه، أو نعتقد أننا نعيش فيه، إلى التزاماتنا وهويتنا المهنية، وأصبح من الآن فصاعدا، باطلا وغير مفيد " (جيوفاني بوسينو، 7:1995)، إن الأزمة المعرفية للذات المنظرة السوسيولوجية الغربية خلال القرن العشرين، جعلت الكثيرين من المفكرين والسوسيولوجيين يراجعون تصوراتهم الفلسفية وممارساتهم العملية؛ " إن علم الاجتماع هو علم يقوم بقفزات، أو على الأقل يتحرك مع كل أزمة اجتماعية مهما كان نطاقها(Bourdieu, 1984 : 37 P.) " ، فالتفكير السوسيولوجي والفلسفي الجديد القادم من أوروبا وأمريكا الشمالية خلال الستينات، يؤكد التأثيرات العميقة للأزمة " الجامعية وأوسع من ذلك الأزمة الاجتماعية، التي تمس منذ سنوات بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، هي مرتبطة بحالة إعادة النظر في علم الاجتماع(Bourdieu, 1971 : 37 P.) " ، وأكثر ما يدل على هذه وضعية الأزمة داخل النظرية السوسيولوجية الغربية هو " التكاثر غير المحدود للمؤلفات التي تقترح إعطاء تحديدات جديدة لعلم الاجتماع [...]، وكأن علم الاجتماع انطلاقا من عدم رغبته فيما هو موجود، يحس بالحاجة إلى إعادة التفكير بطريقته الخاصة في مكانة وملامح ممارسته النظرية الخاصة به" (س.ي. بوبوف، 1984: 158).

إن الأطر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أنتجت الخطاب التنظيري السوسيولوجي، كانت محملة بالأزمات والصراعات الاجتماعية والسياسية، حيث قدمت السوسيولوجيا نفسها كوسيلة

إنقاذ معرفية جديدة " ابتكرتها الارتيابية والعدمية لكي ترمي رداء العجز على كل معرفة [...لذلك] يبدو لنا أن الأسباب العميقة لأزمة سوسيولوجيا المعرفة الراهنة تكمن في ممكن آخر في التبعية الشديدة، حتى لا نقول العبودية، التي يعيشها علم اجتماع المعرفة تجاه الموقف الفلسفي المسبق، المعلن أو المضمر " (جورج غرفتش، 1994: 44)، وهي اليوم تعيش نفس تلك الظروف، لكن تجد النظرية السوسيولوجية نفسها من خلال المنظومة الفلسفية الوضعية في قفص الاتهام .

إن كل الجهود التي حاولت مقاربة أزمة النظرية السوسيولوجية الغربية، باختلاف مداخلها وتعدد فهومها للوضعية أو الظاهرة السوسيولوجية تتفق في الأخير على أن بعدين أساسيين يشكلان نسق هذه الأزمة؛ الأول: هو البعد الإيديولوجي الذي ارتبط علم الاجتماع منذ النشأة به، بل الدافع الإيديولوجي من أهم الدوافع التاريخية لظهور علم الاجتماع كخطاب اجتماعي أكاديمي بديل للخطاب الديني الثيوقراطي التأسيسي لعلم الاجتماع، من جهة أخرى العناصر الإبستمولوجية المكونة داخليا للنسق السوسيولوجي باعتباره علم له عناصر تكوينية وشروط إبستمية يتقيد بها إذا أراد أن يوصف بالعلمية، إن علم الاجتماع الغربي " لا يملك الأسس والمنطلقات السليمة لبناء هذا العلم وتحقيق أهدافه، فالأسس والمنطلقات [...] والمداخل المنهجية، تمنعهم من التخلص من الأزمة، بل هي التي تسبب لهم الأزمة" (مراد زعيمي، 1997: 58)، وأشار " "تريباكين" إلى أن مصادر الأزمة المعاصرة في النظرية السوسيولوجية تكمن في التناقض الداخلي للعلم، الذي يعد انعكاسا لتغيير الظروف والأوضاع المجتمعية على المستوى العالمي، إن مواجهة الأزمة وتحقيق الوحدة الداخلية للعلم تكمن –في نظره- في دراسة علم الاجتماع ونقده لذاته، هذا وقد تعددت مظاهر هذه الأزمة، كما تعددت نظرات العلماء لها والتعبير عنها " (مراد زعيمي، 1997: 53)، و في نفس المعنى " نجد أن " جورج هومانز" يرى " بأن النظريات العلم- اجتماعية قد تصلح لأي شيء، ولكنها لا تصلح على الإطلاق في تفسير الواقع الاجتماعي، وهو هدفها الأول... فأصحاب النظريات الكبرى يقدمون أطرا فكرية تصورية بالغة التجريد حتى لتبدوا في صورتها النهائية تدريبا ذهنيا على استخدام المقولات النظرية،

وبذلك تفقد النظرية الكبرى قوتها التوجيهية، و تبتعد عن محاولة فهم المشكلات الواقعية" (مراد زعيمي، 1997: 54).

3.المجتمعات العربية، وإمكانية بناء نظرية سوسيولوجية:

لقد كانت النظريات السوسيولوجية الوضعية في الغرب " على اختلاف اتجاهاتها، نتاجاً طبيعياً لعدم وجود أسس فكرية وأطر معرفية علمية ثابتة، فجاءت هذه النظريات تعبيراً عن أزمة في الأسس والمنطلقات والخلفيات، وبالعكس من ذلك، لم تكن أزمة الدراسات الإنسانية والاجتماعية في العالم العربي والإسلامي أزمة أسس بقدر ما كانت أزمة ضياع هوية الفكر العربي المعاصر تحت ضغط واقع التبعية الفكرية، وهيمنة الأطر المعرفية الغربية، لقد غدا الفكر العربي، وحتى الإسلامي عاطلاً عن التفكير الجاد ليعيش في شبه غيبوبة، غير قادر على إيجاد أساليب منهجية بحثية تنطلق من ثقافته ومذهبيته، وتعبر عن هويته" (محمد أمزيان، 2008: 145).

إن السوسيولوجية العربية ظهرت كمعرفة استعمارية جاهزة بأدواتها المعرفية والمنهجية، فنتيجة " لخضوع أجزاء كثيرة من الوطن العربي للاستعمار المباشر لفترة طويلة، صمم خلالها الاستعمار كثيرا من أطر التعليم والثقافة بل في بعض الأقطار كان الاستعمار هو الذي أوجد المؤسسات الأكاديمية والتربوية في شكلها النظامي الحديث" (حيدر إبراهيم علي، 1985: 14)، فهذه الوضعية المميزة للسوسيولوجيا العربية تختلف كليا على نشأة السوسيولوجيا الغربية؛ "فالمتتبع لحركة التاريخ الاجتماعي لا يخطئ أهمية علم الاجتماع في صياغة البيت الأوربي وإعادة ترتيبه بعد أن مزقته الثورات الاجتماعية إبان فترة التحول من النظام لإقطاعي إلى النظام الرأسمالي، بل من المعروف أن علم الاجتماع، أو علم هندسة المجتمع كما اسماه مؤسسه أوجست كونت، كان مشروعا يهدف لبناء مجتمع جديد تسود فيه قيم وعلاقات وشائج اجتماعية تضبط سلوك الأفراد وتنظم طموحاتهم ومن ثم يعيد التوازن"(خليل عبد الله المدني، 2007: 7)، ففي أوربا

النهضة (القرن التاسع عشر) " بعد الثورة الصناعية بقليل وبعد احتدام الصراع الطبيعي بين البورجوازية والبروريتارية، خلافا لذلك نرى أن وجود علم الاجتماع في الوطن العربي لا يعكس مطالبا اجتماعيا إنما يرجع إلى إرادة سياسية إلى قرار من فوق [السلطة] -مرحلة بعد الاستقلال، ومن الخارج [الآخر] في حالة المغرب العربي على الأقل" (عبد الصمد الديالمي، 1989: 12)

إن السوسيولوجية العربية بعد الاستقلال من الاستعمار الغربي لم تزل مرتبطة في وعيها الداخلية ونتائجها البحثية وأهدافها التفسيرية بالمنظومة السوسيولوجية الغربية، وبالتالي تعيد إنتاج أزمة وتناقضات الذات السوسيولوجية الغربية، إلى جانب ذلك، يعتبر البعد الإيديولوجي في السوسيولوجية العربية حاضرا منذ البداية، فبعد الاستقلال ارتبط السوسيولوجي العربي " بمؤسسة الحكم، قانعا بالنقل والتقليد، مكتفيا بمهمة وصف الأمور البسيطة والبحث عن علاج لأهون المشكلات الاجتماعية من منظور إجرائي تجريدي" (محمد عزت حجازي، 1986: 14)، فالسلطة الحاكمة في الوطن العربي " يضيق صدرها إذا ما تجرأ المتخصصون في علم الاجتماع بالنقد أو بالقول بما لا يتفق وطموحاتها، وإن هذه النخب الحاكمة لن تعير المتخصصين فيه أذنا صاغية إلا بالدرجة آلتي تسمح بها مصالحها واستراتيجياتها" (خليل عبد الله المدني، 2007: 11

بقيت جامعاتنا في الوطن العربي " إلى اليوم –في الغالب الأعم- تدرس علم الاجتماع على أنه إما علم اجتماع ماركسي أو علم اجتماع وضعي وهو ما يعزز التبعية الكاملة للغرب اجتماعيا وسياسيا وتربويا واقتصاديا وفكريا، وها هي بوادر مشكلات المجتمع الغربي وأمراضه الاجتماعية تلحق بنا شيئا فشيئ " (مراد زعيمي، 1997: 72)، في دراسة لمحمود جاد "الاتجاهات النظرية لعلم الاجتماع" في البلاد النامية قدم فيه عرضا نقديا لكل من الاتجاه المثالي والاتجاه المادي التاريخي ثم الاتجاه التوفيقي ويقول : " إذا كان التوفيقيون يزعمون أنهم يتبنون خطا ثالثا في الفلسفة مستقلا عن كل من المادية والمثالية، فإنهم غالبا ما يفشلون في الدفاع عن هذا الخط حيث أنهم يضطرون- عندما يقتضي الأمر منهم ضرورة اتخاذ موقف

محدد تجاه مسألة بعينها- إلى اتخاذ إما الموقف المادي وإما الموقف المثالي، وبالتالي فإنهم يضطرون إلى اتخاذ موقف غير ثابت ومتناقض وميكانيكي لدرجة أنهم يحاولون التوفيق بين الفرضيات والمبادئ المتناقضة"(مراد زعيمي، 1997: 129).

إن العصاب السوسيولوجي العربي له عدة أوجه أدت إلى إنتاج خطاب مغيب عن الواقع العربي، فالسوسيولوجية في العلم العربي فوقية- حكومية ومركزية غربية من الداخل، والتي ساهمت في امتداد التيارات السوسيولوجية الغربية إلى الحقل السوسيولوجي العربي (التيار الوظيفي، الماركسي، البنائي...) الذي يدعم بشكل خفي إيديولوجية السلطة الفوقية ويهمش الطبقات الاجتماعية الأخرى، إن هذه الأطروحة " تستوجب تحقيق الوعي بالكيد السوسيولوجي، الكامن وراء مظاهر النقد والتمرد، فهل من إمكانية لقيام وضع سوسيولوجي عالمي جديد يشهد مساهمة العرب في شكل إستراتيجية موحدة تعمل على فك الارتباط مع مركز التبعية [الآخر]؟ « (عبد الصمد الديالمي، 1986 : 07).

إن اعتبار السوسيولوجيا كممارسة اجتماعية فلسفية تاريخية، تمكننا من إيداع مسارات أخرى بعيدة عن مسابقات الآخر المفروضة والمفخخة، وعليه يمكننا الحديث عن إيداع سوسيولوجي ذاتي وفق شروط معينة: " أولا؛ عدم الاعتراف بوجود سوسيولوجية مرجعية يجب الانطلاق منها أو الاعتماد عليها أو التموضع داخلها أو ضدها [...]، ثانيا من الممكن في مرحلة أولى تشجيع سوسيولوجيا هندية وسوسيولوجية عربية وسوسيولوجية زنجية [...] إن الاتجاه الوحدوي هو القيمة الأساسية المحركة لإبداع سوسيولوجي حقيقي، يركز على وحدة المستغلين (بفتح اللام) ضد وحدة المستغلين (بكسر اللام) الجاهزة والمهيمنة "(عبد الصمد الديالمي، 1986 : 31).

خلاصة:

يقترح أنور عبد المالك مشروع معرفي لبناء سوسيولوجيا بديلة انطلاقا من إعادة بناء مفاهيم الذات العارفة؛ " إن نقطة انطلاق المسيرة التي نحن بصدد وضع خطوطها الكبرى، هي إثبات عدم ملائمة الجهاز المفاهيمي للعلوم الاجتماعية للمجتمعات الغربية، الذين زودوا مواد التحليل من أجل الإعداد المفاهيمي، ووضعوا الأنساق النظرية في مختلف التخصصات من جهة أخرى : A.Abdelmalek ,1970) " (41، إن مراجعة وتحرير الذات عملية خطيرة ومرهقة للتحرر من المركزية اللاشعورية التي نعيد إنتاجها باستمرار، ومنه " لا يمكن إسقاط المنظومة الفكرية الغربية بشكل تلقائي على خصوصيات ثقافية أخرى، عربية مثلا-حتى عملية الاستفادة من هذا الإنتاج الفكري لا يمكن أن يتم بعيدا عن الحذر الإبستمولوجي الناقد للذات الغربية المتمركزة، والتي لا تتصور أي مجتمع ممكن إلا على صورته" (محمد وقيدي، 1983: 70)، وعليه يقترح "أنور عبد المالك" ثلاث مراحل للقطيعة المعرفي وهي " :1-النقد .-2الكشف .-3إعادة البناء؛ فالمرحلة الأولى تهدف إلى نقد الجهاز المفاهيمي للآخر، عن طريق تفكيكه إلى علمي وعملي (نظري وإجرائي)، التي من خلالها يمكن كشف الخصوصية المتمركزة لهذا الجهاز.أما المرحلة الثانية (الكشف): تستلزم مقاربة تاريخية-نقدية يتحرر من خلالها المحتوى الخصوصي للمجتمعات المدروسة بأبعادها التركيبية الاجتماعية والاقتصادية المختلفة.في المرحلة الثالثة (إعادة البناء): يتم بناء المعرفة الخصوصية انطلاقا من الواقع الاجتماعي الذاتي، ومعطيات العالم الواقعي والوجود الفعلي للمجتمعات المحددة في إطار الزمان والمكان، لتكون إلى حد ما المصدر المؤسس للعالم المفاهيمي الجديد A.Abdelmalek ,1970) " (53: .

إن المشروع المعرفي الذي يقدمه أنور عبد المالك يهدف إلى مراجعة المنظومة المعرفية للذات والتي تسمح ببناء سوسيولوجيا خصوصية باعتبار الواقع العربي الإسلامي المختلف إبستمولوجيا عن الواقع الغربي بشكل خاص.